

## مفهوم التراث في الفكر الإسلامي

■ الحسان شهيد

### تعريف التراث

لغة: كلمة التراث مشتقة من وَرِثَ، يَرِثُ، إِرْثًا، جاء عن ابن الأعرابي في تاج العروس: الوَرِثُ والإِرْثُ، والوَرَاثُ، والإِرَاثُ: والتراث واحد، قال الجوهري: التراث أصل التاء فيه واو<sup>1</sup>، وقال ابن منظور «يقال: ورثت فلاناً مالاً وأورثته ورثاً إذا مات مورثك فصار ميراثك له» منه قول عمرو بن كلثوم:

ورثنا مجد علقة بن سيف  
أباح لنا حصون المجد دينا  
ورثنا مهلهلا والخير منه  
زهيرا نعم زخر الذاخرينا  
وعتابا وكلثوما جميعا  
بهم نلنا تراث الأكرميننا

1 - تاج العروس، 1/652.



قال شارح المعلقات أبو عبد الله الزوزني: «ورثنا مجد عتاب وكلثوم، وبهم بلغنا ميراث الأكارم؛ أي حزنا مآثرهم، ومفاخرهم، فشرفنا بها وكرمنا»<sup>1</sup>.

ووردت في القرآن الكريم كلمات من قبيل (يَرِثُ)، في قوله تعالى إخباراً عن زكرياء ودعائه إياه: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا \* يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾<sup>2</sup>، جاء في لسان العرب: «أي يبقى بعدي فيصير لميراثي، وقال ابن سيده: إنما أراد يرثني ويرث من آل يعقوب النبوة»<sup>3</sup>.

ومن قبيل (التراث)، في قوله تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا \* وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾<sup>4</sup>؛ أي «وتأكلون أيها الناس الميراث أكلاً لمًّا»<sup>5</sup>، وقال الزمخشري: يجمعون في أكلهم الميراث ونصيب غيرهم، وقيل: كانوا لا يورثون النساء ولا الصبيان، «يأكلون تراثهم مع تراثهم»<sup>6</sup>، وقال الشنقيطي: التراث؛ أي الميراث<sup>7</sup>.

ومن قبيل (أورثنا)، في قوله رَجُلٌ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾<sup>8</sup>، قال الطبري: «عن ابن عباس: قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾ إلى قوله: ﴿الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ هم أمة محمد ﷺ ورثهم

1 - شرح المعلقات السبع، أبو عبد الله الزوزني، ص 216.

2 - سورة مريم، الآيتان 5، 6.

3 - لسان العرب، 2/200، ج.

4 - سورة الفجر، الآيتان 19، 20.

5 - جامع البيان، للطبري، م 12، ج 36، ص 116.

6 - الكشف 4/751.

7 - أضواء البيان، 9/208.

8 - سورة فاطر، الآية 32.

الله كل كتاب أنزله...<sup>1</sup>، وقال الزمخشري: «**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ**»، قلت: فيه وجهان، أحدهما: أنا أوحينا لك القرآن، ثم أورثناه من بعدك؛ أي حكمنا بتوريثه، أو قال: أورثناه، وهو يريد: نورثه<sup>2</sup>، وقال ابن عطية الأندلسي: «**أَوْرَثْنَا**» معناه: أعطيناه فرقة، بعد موت فرقة، والميراث - حقيقة أو مجازاً - إنما يقال فيما صار لإنسان بعد موت آخر... فكأن الله... ورث أمة محمد ﷺ الكتاب الذي كان في الأمم قبلهم<sup>3</sup>.

أما السُّنَّة النبوية فقد ذكرت كلمة (وَرَثَةٌ)، ثم (يورثون) في قوله ﷺ: «إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لا يورثون ديناراً ولا درهماً، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»<sup>4</sup>.

كما وردت كلمة (ميراث) على لسان أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لما خاطب الصحابة رضوان الله عليهم: أنتم هنا وميراث محمد يوزع في المساجد، فلما انطلقوا إلى المسجد اندهشوا؛ إذ لم يجدوا سوى حلق الذكر وتلاوة القرآن، فأوضح لهم أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه ميراث محمد ﷺ<sup>5</sup>. فمن هذه الشواهد القرآنية والحديثية والشعرية يمكن أن نستخلص الفوائد التالية:

- 1 - أنه لا يوجد فرق بين كلمتي التراث والميراث، فهما مختلفتان في اللفظ متحدتان في المعنى.
- 2 - أن التراث يطلق في الحقيقة على ما يورث من المال والمجد والنسب، ويطلق على الدين والعقيدة مجازاً.

1 - جامع البيان، م10، ج32، ص8.

2 - الكشاف 621/3.

3 - المحرر الوجيز، 246/13.

4 - رواه الترمذي في أبواب العلم 155/10، الدارمي في فضل العلم والعلماء 98/1، أبو داوود في كتاب العلم.

5 - ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد 123/1.



3 - أن العقيدة قد تصبح ميراثاً مثل ما يورث المال والحسب والمجد، وبالتالي فالتراث يجمع هذه المعاني كلها.

أما اصطلاحاً: فتتعدد مفاهيم التراث في المجال الاصطلاحي بحسب تعدد الاختصاصات والفضاءات التي تطلق هذا المفهوم، فقد يعني التراث الثقافة الشعبية عند بعضهم، وتعني عادات وتقاليد أمة وشعب، وقد تعني ما هو مكتوب ومدون، وعند الباحثين في علوم السلف: ما هو مكتوب من مخطوطات ونصوص خلفها السلف والأجداد، وعرفه الدكتور محمد جميل مبارك «بأنه تركة مادية أو معنوية يخلفها السابق لللاحق لرابطة بينهما»<sup>1</sup>.

### هل يدخل الوحي ضمن التراث؟

تحديد مفهوم التراث في مجال الدراسات والبحوث الإسلامية والفكر الإسلامي عرف تمايزاً ملحوظاً، ومردُّ ذلك إلى الاختلاف في مدى دمج الوحي - القرآن والسُّنة - ضمن التراث، فتفرع عن ذلك متقابلان:

#### الاتجاه الأول:

وهذا الاتجاه لا يرى مانعاً من إدماج الوحي ضمن مكونات التراث، يقول أكرم ضياء العمري: «فالتراث الإسلامي هو ما ورثناه عن آبائنا من عقيدة وثقافة وقيم وآداب وفنون وصناعات وسائر المنجزات الأخرى المعنوية والمادية، ومن ثم فلن يقتصر التراث على المنجزات الثقافية والحضارية والمادية؛ بل يشمل الوحي الإلهي - القرآن والسُّنة - الذي ورثناه عن أسلافنا»<sup>2</sup>.

1 - مفهوم التراث محددات ومفاهيم، الندوة التدريبية المنعقدة بفاس، كلية الآداب، نحو منهجية للتعامل مع التراث الإسلامي ص 98.

2 - التراث والمعاصرة، ص 27.

ويشتمل التراث عند جميل مبارك «نصوص الوحي والعلوم والمعارف التي أنتجها السابقون حولهما من أجل توظيف وخدمة الحقيقة الإسلامية التي تضمنتها تلك النصوص ليرثها عنهم اللاحقون؛ ليضمنوا بها استمرار العيش في ظلال تلك الحقيقة الإسلامية»<sup>1</sup>. والاتجاه نفسه يستفاد من كلام شامل شاهين وهو يتحدث عما خلفه علماء الأمة من تراث إنساني عظيم وضخم منتشر في مكتبات العالم شرقيه وغربيه، بالإضافة إلى المزية الأهم والأرفع وهو شمول التراث الإسلامي على الوحي الإلهي - القرآن والسُّنة<sup>2</sup>.

### أسس الاتجاه الأول

التراث الإسلامي هو ما ورثناه عن آباؤنا من عقيدة وثقافة وقيم وآداب وفنون وصناعات وسائر المنجزات الأخرى المعنوية والمادية

يقوم الاتجاه الذي يرى في نصوص الوحي تراثاً على أسس أهمها:

- 1 - أن المعاني المستفادة من النصوص الشرعية - من قرآن كريم وحديث نبوي - توحى بشمول التراث على الوحي وغيره من المعارف الأخرى، وقد يبقى بيان ذلك في المدلول اللغوي.
- 2 - أن إدراج الوحي ضمن التراث لا يعني استواء الوحي مع غيره من حيث القيمة العلمية؛ بل لكل خصوصياته ومميزاته.
- 3 - أن التعامل مع التراث سيأخذ بعين الاعتبار قدسية نصوص الوحي وتنزهه عن الانتقاء، عكس ما ورثناه عن علمائنا من علوم ومعارف أخرى، فهي تخضع للنقد والاختبار، «فالتراث يجمع بين الاعتقاد في الأصول الثابتة، وبين الاجتهاد في الفروع، اجتهاداً يتغير مع تغير

1 - مفهوم التراث محددات ومفاهيم، نحو منهجية للتعامل مع التراث الإسلامي، ص 100.

2 - منهجية البحث عن التراث بين الواقع والطموح، نحو منهجية للتعامل مع التراث الإسلامي، ص 115.



المكان واختلاف الزمان؛ حيث ينظر إلى الإسلام على أنه منهج رباني من حيث الأصول، وممارسة إنسانية من حيث التطبيق<sup>1</sup>.

4 - أن السبب في الفصل بين الوحي والتراث يعود إلى وهن الأمة، وتراجعها عن مهماتها الحضارية، وعدم وضوح الرؤية والتصوير لديها إزاء التراث.

5 - أن الفصل بين الوحي والتراث أمر حديث العهد لم تعرفه الأمة من قبل إلا بعدما أُبتليت به من غزو ثقافي وفكري.

### مقصده من موقفه

يقصد الاتجاه الأول مما ذهب إليه إلى الرغبة في الحفاظ على الحمولة المعنوية للمصطلح القرآني والحديثي، دون اعتبار لما توحى به المصطلحات الوافدة خاصة مصطلح التراث / LECACY / HERITAGE في الحضارة الغربية المعاصرة.

### الاتجاه الثاني:

أما الاتجاه الثاني في الموقف من التراث فيحترز من حصر نصوص الوحي، مع باقي مكوناته الفكرية والمعرفية والحضارية بشكل عام.

ويمثل هذا الاتجاه نخبة من المفكرين المسلمين من بينهم عماد الدين خليل، الذي يقول: «وهذا لا يعني - بالضرورة - إدراج النصوص القرآنية والنبوية التي ينبنى عليها علم العقيدة والشريعة في سياق المعطى التراثي بسبب اختلاف المصدرين، والخصائص المميزة لكل معطى»<sup>2</sup>.

1 - إشكالية التراث في العلوم السياسية، نيفين عبد الخالق مصطفى، مجلة المسلم المعاصر، س 11، ع 43، ص 81، رجب رمضان، 1405.

2 - في منهج التعامل مع التراث، مجلة إسلامية المعرفة، ع 19، س 5، تاء 1999/1420، ص 124.

فنصوص الوحي عنده ينبغي تنزيهها عن هذا الخلط المنهجي؛ لأنها تتميز عن غيرها في المصدر والخصائص، وكذا الأستاذ أنور الجندي، فهو يعدّ كلمة تراث كلمة ملفومة يراد بها أن يصبح الإسلام تراثاً شبيهاً بغيره لدى الأمم الأخرى؛ حيث قال: «أما بالنسبة للإسلام فإن هناك شيئاً قائماً كالمنار لا يمكن أن يوصف بأنه تراث، هو القرآن والسُّنة، وهذا هو ميراث المسلمين الأصيل الذي حفظ الله ما أنزل منه وهو القرآن، والذي وصفه الرسول الكريم بقوله: «لقد أوتيت هذا القرآن ومثله معه...» فكيف يمكن أن يصفه بضعة شعوبيين وعلمانيين بأنه تراث»<sup>1</sup>.

وهناك من يتحفظ عن إطلاق معنى التراث على ما هو وحي إلى حد الامتناع<sup>2</sup>.

## أسس الاتجاه الثاني

يسوغ هذا الاتجاه موقفه بالأمر التالية:

- 1 - أن وسم نصوص الوحي بالتراث يجعلها عرضة للانتقاء والنقد والتقويم، وهذا ما تتعالى عنه نصوص القرآن والسُّنة عن غيرها؛ بكونها وحي مطلق<sup>3</sup>.
- 2 - أن مفهوم التراث - بهذا الشكل - مفهوم مستورد من مناهج البحث الغربية الاستشراقية، له حمولة ثقافية من شأنها أن تسيء إلى نصوص الوحي، وتتعامل معها معطيات تاريخية كغيرها.

1 - المعاصرة في إطار الأصالة، أنور الجندي، دار الصحوة للنشر، القاهرة، ط1، 1987/1408، ص 4.

2 - انظر النص الإسلامي، في قراءات الفكر العربي المعاصر، سعيد شبار، منشورات الفرقان، ط1، 1999، مطبعة دار القرويين 21.

3 - انظر مبادئ أساسية في تقويم التراث، عبد المجيد النجار ضمن الندوة المذكورة، ص 167.



- 3 - أن هناك اختلافاً واضحاً بين نصوص الوحي وغيرها من المعارف والتركات العلمية، من حيث المصدر والخصائص المميزة، فالأولى مصدرها إلهي وخاصيتها اليقين ولا تقبل النقض، في حين الثانية مصدرها بشري وخاصيتها الصواب والخطأ<sup>1</sup>.
- 4 - أن مفهوم التراث الذي درج استعماله مقابلاً للمعاصرة فيه إجحاف في حق النصوص الشرعية المتعالية عن مفهوم التاريخ زمانه ومكانه<sup>2</sup>.

### المقصد من موقفه

يمكن تلخيص مقصد هذا الاتجاه مما ذهب إليه في أنه يريد الحفاظ على القدسية المطلقة، التي يتمتع بها كل من القرآن والسنة عند دراسة التراث وفحصه، خصوصاً في وقت تبسط فيه النظريات الغربية مناهجها بكل قوة، لا تفرق فيه بين ما هو مقدس وآخر غير مقدس.

### أسباب النزاع

ترجع أسباب النزاع في مسألة التراث، ومدى شموليته للوحي إلى الأمور التالية:

- 1 - الدلالة اللغوية لمصطلح التراث، وهل تشمل في حقيقتها المال والنسب والحسب والدين، أم تعني المال والنسب والحسب في الحقيقة، والدين في المجاز.

1 - انظر نحو منهج للتعامل مع التراث، ص 124.

2 - انظر منهجية البحث في التراث بين الواقع والطموح، الندوة التدريبية، ص 115.



2 - أن الحكم على النصوص الشرعية بالتراثية أمر ينبني عليه جملة أمور، منها مسألة التعامل والمعالجة العلمية، وبالتالي ينبغي توجيه الخلاف فيها بما يحافظ على قدسيته.

3 - التأثير الثقافي للفكر الغربي في البحث والنظر على الفكر الإسلامي بمصطلحاته ومعانيها الثقافية، مما أدى برواده إلى محاولة الاستجابة لهذا الضغط لتعديل رؤاه وفق تصوراته المهيمنة، «فالمشكلة إذن ليست في تعريف التراث كاصطلاح علمي حضاري، وإنما في هيمنة الفكر الغربي وقيادته على العلوم والثقافة، وتحديده لمصطلحاتها وصبغتهما بصبغة غير دينية»<sup>1</sup>.

## تحرير محل النزاع

للووصول إلى صياغة تجمع بين الرأيين المتعارضين أقترح النظر في المبادئ التالية، علّها تكون من بين المسالك المؤدية إلى تحرير الخلاف:

أ - أننا مطالبون بإعادة الاعتبار للمصطلحات الشرعية الأصيلة دون أن تضرنا فهومات الآخر وتأويلاته كما أننا في حاجة لذلك أيضاً، فمصطلح التراث مصطلح قرآني أصيل، وقد تبين ذلك، من خلال الآيات والأحاديث، فليس هناك من داع إلى الحرج حالة توظيفه، بما يحمله من معان تشمل الوحي وغير الوحي.

ب - ينبغي أن نحرر أنفسنا من سلطة الفكر الغربي، وهيمنة مفاهيمه، وإكراهات مناهجه.

1 - التراث والمعاصرة، 29.



ج - أن تسويغنا لعدم نعت نصوص الوحي بالتراث بأن ذلك تصور فكري غربي تقوم عليه مناهجه - وبالتالي سنسقط في تصوراته ورؤاه - تسويغ ليس له أساس متين، مع أن هذا التفسير سيدفعنا إلى إعادة النظر في كثير من المفاهيم الحديثة، كمفهوم القيم مثلاً، والثقافة، والحضارة، والتقدم، والسعادة، والإرهاب، وغير ذلك من المفاهيم المشتركة في المجال التداولي، والمختلفة في المجال التوظيفي التعاملي.

د - إن تعاملنا مع النوازل الفكرية أو الفقهية في إطار اصطلاحاتها، يجب أن يكون بصيراً بكل حيثياتها ومكوناتها وخصائصها، فشمول التراث لنصوص الوحي لا يعني أن منهج البحث والدراسة فيه سيشمل نصوص الوحي أيضاً؛ بل ينبغي أن نستشعر في عملية البحث والنقد ربانية الوحي ومطلقيته وقدسيتها ونصوصه، مقابل إنسانية المعارف الأخرى وقابليتها للنقض والانتقاء.